الفصل الأول

فلسفة النبوة في حدودها وأبعادها

- تجرد النبوة الإسلامية من ملابساتها الأولى.
- البحث عن النبوة وحدودها وأبعادها عند مفكرى الإسلام.
- النبوة عند الإمام الغزالى.
- فلسفة النبوة عند ابن حزم الأندلسى.
- فلسفة النبوة عند ابن خلدون.
- فلسفة النبوة عند الإمام محمد عبده.
- محاولات التنبؤ.

فلسفة النبوة في حدودها وأبعادها

النبوة مصدر نبأ ينبو نبوة ونباوة بمعنى ارتفع وعلا وسما. والنبوة رفع الصوت لقول الشنفرى:

وما هى إلا نبوة ثم هومت وقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل

أو هى مصدر نبأ ينبأ نبأ بمعنى خرج من أرض إلى أرض. ومنه النبأ بالفتحتين بمعنى الخبر لأنه يأتى من مكان إلى مكان كما يأتى الوحى من الله تعالى إلى النبى.

فالاسم منه «النبى» بمعنى رفيع القدر والمكانة وهو الذي يتحمل الخبر من الله إلى الناس.

قال الراغب في المفردات: روى عن النبى ﷺ أنه قال لمن كلمه يا نبىء الله -بالهمزة- فقال: «لست بنبىء الله ولكن نبى الله» بغير الهمزة.

ثم قال الراغب: «ومن العلماء من جعل أصلها بالهمزة ثم أبدلها ياء».

لذلك صارت الكلمة تحتمل معنيين: الرفعة والإخبار.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه «الوحى المحمدى»: «النبىء في اللغة العربية وصف من النبأ وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم، ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لأنه منبىء عن الله ومُنبَّأ منه.

والنبى بالتشديد أكثر استعمالاً أبدلت الهمزة ياء.

أو هو من النبوة وهي الرفعة والشرف.

ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذي يخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلة.

وقيل: إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة: المتكلم بصوت جهورى مطلقًا أو في الأمور التشريعية، وهو عندنا من أوحى الله إليه وحيًا فإن أمره بتبليغه كان رسولاً، فكل رسول نبي وما كل نبي رسول»[1] وسيأتى الكلام على النبي والرسول مفصلاً في محله.

ثم ذكر السيد رشيد رضا ما جاء من تفسير النبوة في قاموس الكتاب المقدس ما نصه:

«النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما يحدث فيما بعد».

ثم علق على ما ورد في تعريف النبوة عند أهل الكتاب بقوله: «إن أكثر أنبياء بنى إسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل ما يؤثر في الأنفس ويحرك الشعور والوجدان، ويثير رواكد الخيال» انتهى كلامه.

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»: «إن كلمة النبوة لم تكن معروفة لدى العبرانيين قبل اتصالهم

(١) الوحي المحمدى: للشيخ محمد رشيد رضا، ص٤٣.

بالعرب في أرض مدين وأرض كنعان فكانوا يسمون النبى بالرائى أو الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اسم النبى إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة»(١).

قال الأستاذ العقاد: «إن أصحاب المقارنة بين الأديان عرفوا أنواعًا كثيرة من النبوات منها نبوة السحر. ونبوة الرؤيا والأحلام ونبوة الكهانة ونبوة الجذب أو الجنون المقدس ونبوة التنجيم، ولم يعرفوا الفرق بين النبوة الصحيحة والفاسدة حتى جاء الإسلام مصححًا لكل ما التبس بالنبوات الصحيحة من ملابسات».

قلت: فرق الإسلام بين النبوة الإلهية وبين ملابساتها من الكهانة والعرافة والقيافة والفراسة وغير ذلك من النبوات المعروفة في الأديان السابقة.

فإن النبوة الصحيحة لا تلتبس بالسحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

ولا تلتبس بالشعر ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

ولا تلتبس بالجنون المقدس ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

ولا تلتبس بالكهانة والتكهن ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢].

ولا تلتبس بمعرفة الغيب ﴿فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: للأستاذ عباس محمود العقاد، ص٦٣.

معكم من المنظرين﴾ [يونس: ٢٠]، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

●●●

● تجرد النبوة الإسلامية من ملابساتها الأولى:

لقد استعانت النبوة في أول ظهورها بما يقرب فهم معناها للناس من اكتشاف الغيب ومن تعبير الأحلام ومما يؤثر على النفس ويستولى على الذهن والعقل قبل أن تتجرد من تلك الملابسات عند نضوج العقل البشرى.

لهذا قال الأستاذ عباس محمود العقاد في «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»: «الواقع أن النبوة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الإنسان في الإله»[1].

قلت: قد استعانت النبوة بخط الرمل والتنجيم على عهد النبى المصرى إدريس الذي يسمونه «هرمس»، وفي التاريخ أنه أول من وضع أسماء البروج على حسب ترتيبها في الأفلاك[2].

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: للأستاذ عباس محمود العقاد، ص ٦١.
(٢) الملل والنحل: للشهرستانى ٢/ ٢٠٢.

وأنه كان يخط في الرمل للكشف عن معرفة المستقبل، وجاء في الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «**كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطة فذاك**»(١).

وكذلك استعانت النبوة بالتنجيم وتعبير الرؤيا على عهد يعقوب وبنيه لقوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ [يوسف: ٤].

وجاء تعبير يعقوب بإثبات العلاقة بين أبنائه والبروج الاثنى عشر في السماء وبين الشمس والقمر وبين يعقوب وزوجته كما جاء تعبيره بقوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**﴾ [يوسف: ٦].

ولم تظهر نبوة يوسف إلا عن طريق تعبير الرؤيا لصاحبيه في السجن وتعبير رؤيا الملك في سبع بقرات وسبع سنبلات.

فهذا التعبير الذي كان من علامات النبوة ليعقوب ويوسف فقد أوتى سيدنا محمد ﷺ علم التعبير الكامل وأخذ بأثاره الصحابة والتابعون والفقهاء فوضعوا له القواعد التأويلية من الاشتقاق والأضداد وغيرها، فلم يعد تعبير الرؤيا علامة من علامات النبوة ولم يعد معجزة من معجزات الأنبياء.

وكانت النبوة تستعين بالشعر والغناء للتأثير النفسى على الناس كما كان في عهد النبى داود الذي وصفه بنو إسرائيل بأنه إمام المغنين لأنه رزق النغمة الطيبة والترجيع بالألحان المطربة، ويؤيد ذلك ما قاله النبى ﷺ لأبى موسى الأشعرى «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**» (رواه الشيخان).

(١) انظر شرح الحديث فى مقدمة ابن خلدون ص٩٥.

وكانت النبوة تعتمد على المعجزات الحسية من نوع ما يتفق وعصر كل نبى كما كانت من عهد النبى صالح حتى عهد النبى موسى وعيسى وما بينهم من النبيين.

فجاءت نبوة محمد متنزهة عن ادعاء معرفة الغيب قال تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]

وكذلك جاءت نبوته مترفعة عن الشعر لقول القرآن عنه ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة: ٤١].

وكذلك جاءت نبوته مستقلة عن المعجزات المادية الحسية معتمدة على المعجزة العقلية الكبرى التي تحدى العرب بها وهو القرآن القائل: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومثله ما رواه الشيخان أن النبى ﷺ قال: «ما من الأنبياء إلا قد أوتى ما على مثله آمن البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحى إلىَّ وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة».

لا ينكر هذا الحديث وجود معجزات أخرى غير القرآن لنبينا محمد ﷺ، ولكنه يثبت القرآن كمعجزته الكبرى الدائمة الباقية ما بقي الدهر.

●●●

● البحث عن النبوة في حدودها وأبعادها عند مفكري الإسلام:

لقد أوجز الأستاذ محمد لطفي جمعة في كتاب «فلاسفة الإسلام»[1] جميع ما قاله الفارابي وابن سينا وغيرهما في معاني النبوة وقال ما نصه بتصرف:

«النبوة عند الفلاسفة ولا فرق بينها عندهم وبين الإلهام.

النبوة هي اتصال النفس الإنسانية الناطقة بالنفوس الفلكية اتصالاً معنوياً يجعلها تشرف على ما فيها من صور الحوادث فترتسم في النفس البشرية من تلك الصور ما يستعد لارتسامه فيها كمرآة يحاذي بها مرآة أخرى فيها نقوش فينعكس منها إلى الأولى ما يقابلها.

وليس عندهم فرق بين الوحي والإلهام إلا أن الأول يكون للنبي ويكون الثاني للعارف أو الولي وللنبوة استعداد ذاتي ففي القوى النفسانية لمن له النبوة خصائص ثلاث:

١ - أن تصفو نفسه صفاء شديداً وتقوى قوة لا تشغلها الحواس عن النظر إلى عالم العقل فتستعد استعداداً خاصاً للاتصال بالعقول المفارقة بأدنى توجه ويفيض عليها من علم الغيب ما لا يدرك بالفكر والقياس.

(١) فلاسفة الإسلام: للأستاذ محمد لطفي جمعه ص٤٢ وما بعدها.

٢- أن يكون في جوهر نفسه قوة تؤثر في هيولى العالم بإزالة صورة وإيجاد صورة وذلك أن الهيولى منقادة لتأثير النفوس المفارقة مطيعة لقواها السارية في العالم وقد تبلغ نفس إنسانية في الشرف حداً يناسب تلك النفوس فتفعل فعلها وتقوى على ما قويت عليه.

٣- أن يرى الملائكة مصورة بصورة محسوسة ويسمع كلامهم وحيا من الله وذلك بقوة نفسه واتصالها بعالم الغيب في اليقظة وقوة المتخيلة ومحاكاتها ما أدركته النفس بصورة جميلة وأصوات منظومة فتكون الصورة المحاكية للجوهر الشريف صورة عجيبة في غاية الحسن، وهو الملك الذي يراه النبي وتكون المعارف التي تتصل بالنفس من اتصالها بالجواهر الشريفة تتمثل بالكلام الحسن المنظوم الواقع في الحس المشترك فيكون مسموعًا.

يكون كل ذلك باستعداد ذاتي في نفس النبي ويحصل للولي بالرياضة والمجاهدة».

●●●

● النبوة عند الإمام الغزالي وهو متأثر شيئًا ما بآراء الفلاسفة:

إن جوهر الإنسان في أصل الفطرة خلق خاليًا ساذجًا لا خبر معه من عوالم الله تعالى والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وإنما خبره في العالم بواسطة الإدراك وكل إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات.

ونعنى بالعوالم أجناس الموجودات فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس، فيدرك بها أجناسًا من الموجودات، كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها، واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعًا بل هي كالمعدوم في حق اللمس.

ثم تخلق له حاسة البصر فيدرك بها الألوان والأشكال وهو أوسع عوالم المحسوسات ثم ينفسخ فيه السمع فيسمع الأصوات والنغمات.

ثم يخلق له الذوق، وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز، وهو قريب من سبع سنين، وهو طور آخر من أطوار وجوده، فيدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات، لا يوجد منها شيء في عالم الحس.

ثم يترقى إلى طور آخر، فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات، وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله.

ووراء العقل طور آخر، تتفتح فيه عين أخرى، يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأموراً أخرى، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز.

وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة، واستبعدوها وذلك عين الجهل إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه فيظن أنه غير موجود في نفسه، والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال، وحكى له ذلك ابتداء، لم يفهمها ولم يقربها.

وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه، بأن أعطاهم أنموذجًا من خاصية النبوة، وهو النوم إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحًا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير، وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه -قيل له: إن من الناس من يسقط مغشيًا عليه، كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره. فيدرك الغيب -لأنكره، وأقام البرهان على استحالته.

وقال: «القوى الحساسة أسباب الإدراك، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فأن لا يدركها مع ركودها، أولى وأحق.

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعًا من المعقولات، والحواس معزولة عنها.

فالنبوة أيضًا عبارة عن طور يحصل فيها عين لها نور، يظهر في نورها الغيب وأمورها لا يدركها العقل والشك في النبوة إما أن يقع في إمكانها أو في وجودها ووقوعها أو في حصولها لشخص معين ودليل إمكانها وجودها.

ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلم الطب والنجوم، فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرج إلا بإلهام إلهي، وتوفيق من جهة الله تعالى ولا سبيل إليها بالتجربة.

فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة فكيف ينال ذلك بالتجربة، وكذلك خواص الأدوية.

فتبين بهذا البرهان أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي

لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة، لا أن النبوة عبارة عنها فقط، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة، ولها خواص كثيرة سواها وما ذكرنا فقطرة من بحرها إنما ذكرناها لأن معك أنموذجًا منها وهو مدركاتك في النوم ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم، وهي معجزات الأنبياء، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً».

قلت: وهكذا نبين لكل عالم بفن من العلوم كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً من نفس علمه برهان النبوة.

●●●

● فلسفة النبوة عند ابن حزم الأندلسي:

يقول ابن حزم: «النبوة بعثة قوم قد خصهم الله بالفضيلة لا لعلة إلا أنه شاء ذلك فعلمهم الله العلم بدون تعلم ولا تنقل في مراتبه ولا طلب له بل بوحي حققه عنده».

ثم قال: «إذا صح أن الله تعالى ابتدأ العالم ولم يكن موجوداً حتى خلقه الله تعالى فبيقين ندرى أن العلوم والصناعات لا يمكن البته أن يهتدى إليها أحد بطبعه فيما بيننا دون تعليم كالطب ومعرفة الطبائع والأمراض وسببها على كثرة اختلافها ووجود العلاج لها بالعقاقير التي لا سبيل إلى تجريبها كلها أبداً وكيف يجرب كل عقار في كل علة ومتى يتهيأ هذا، ولا سبيل له إلا في عشرة آلاف من السنين أو مشاهدة كل مريض في العالم وهذا يقطع دونه قواطع الموت والشغل بما لابد منه من أمر المعاش وذهاب الدول وسائر العوائق.

وكعلم النجوم ومعرفة دورانها وقطعها وعودها إلى أفلاكها مما لا يتم إلا في عشرة آلاف من السنين ولابد من أن يقطع دون ضبط ذلك العوائق التي قلنا.

وكاللغة التي لا تصح تربية ولا عيش ولا تصرف إلا بها ولا سبيل إلى الاتفاق عليها إلا بلغة أخرى ولابد، فصح أنه لابد من مبدأ للغة ما.

وكالحرث والحصاد والدرس والطحن وآلاته والعجن والطبخ وحراسة المواشي واتخاذ الإنسان منها الفرس، واستخراج الأدهان ودق الكتان والعنب والقطن وغزله وحياكته وقطعه وخياطته ولبسه، وآلات كل ذلك آلات الحرث والإرحاء والسفن وتدبيرها في القطع بها للبحار والدواليب وحفر الآبار، وتربية النحل ودود القز واستخراج المعادن وعمل الأبنية منها ومن الخشب والفخار، كل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم فوجب بالضرورة، ولابد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله تعالى ابتداء كل هذا دون معلم لكن بوحي حققه عنده فهذه هي النبوة». . انتهى كلامه.

قلت: وعندي أن ما يستدل بحقيقة الوحي في ذلك كله قوله تعالى لأول إنسان خلقه الله من تراب ثم قال له كن فيكون فكان آدم الذي قال فيه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

معنى ذلك: علمه خواص النباتات والجمادات والحيوانات كلها ثم ورثها منه أبناؤه عن طريق التعليم أو عن طريق الإلهام أو عن طريق النظر والتفكير.

وعلم الله نوح صنع السفينة لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

كما علم داود نسج الحديد بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

كذلك علم الله عدداً من الأنبياء وألهم عدداً من العقلاء أصول المعارف والصناعات كما ألهم عدداً من الحيوانات.

ومن الدليل على إثبات ذلك، المعارف والصناعات التي يعرفها الحيوانات من الطيور والحشرات، كصناعة العشش وطلب المعيشة من الطيور واكتشاف الأرضة المياه وبناء الحجر الأرضة والنمل وامتصاص النحل الندى العذب من الأزهار، وكيف اهتدى إليه الأرضة والنمل والنحل إذا لم يكن من الوحى؟ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

وسيأتى تتمة الأمر في البحث عن الوحى.

●●●

● فلسفة النبوة عند ابن خلدون:

يتأثر ابن خلدون بمذهب الفلاسفة والصوفية في البحث عن النبوة بقوله:

إن العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة عجيبة من الترتيب وربط

الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، فعالم العناصر متدرج من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدًا وهابطًا، ويستحيل في بعض الأوقات، والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض.

وعالم التكوين يبتدئ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج فآخر أفق المعارف متصل بأول أفق النبات، وآخر أفق النبات متصل بأول أفق الحيوان، ومعنى الاتصال في هذه الكائنات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول الأفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهت في التدريج إلى الإنسان صاحب الفكر والروية.

ثم إنا نجد في العوالم على اختلافهما آثارًا متنوعة تشهد كلها بأن لها مؤثرًا مباينًا للأجسام فهو روحاني ويتصل بالكائنات لوجوب اتصاله بهذه العوالم في وجودها، وذلك هو النفس المدركة المحركة، ولابد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضًا ويكون بذاته إدراكًا صرفًا وتعقلاً محضًا، وهو عالم الملائكة.

فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتًا من الأوقات في لمحة من اللمحات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل، وهؤلاء هم الأنبياء

فطروا على الانسلاخ من البشرية وجسمانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى، ليصيروا في لمحة من اللمحات ملائكة بالفعل، ويحصل لهم شهود الملأ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهي في تلك اللمحة.

فإذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا فى ذلك الملأ الأعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد، فتارة يسمع النبى دوياً كأنه رمز من الكلام وتارة يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه ويعى ما يقوله.

والتلقى من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كأنه في لحظة واحدة، بل أقرب من لمح البصر، لأنه ليس في زمان بل كلها تقع جميعًا، فيظهر كأنها سريعة، ولذلك سميت وحيًا لأن الوحى في اللغة الإسراع.

●●●

● فلسفة النبوة عند الإمام محمد عبده.. كما في رسالة التوحيد:

«مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال، وأن من أرباب الهمم وكبار النفس ما يرى البعيد عن صغارها قريبًا فيسعى إليه ثم يدركه، والناس دونه ينكرون بدايته، ويعجبون لنهايته ثم يألفون ما صار إليه كأنه من المعروف الذي لا ينازع، والظاهر الذي لا يجاحد، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه. ثورتهم في بادئ الأمر على من دعاهم إليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة إلى اليوم.

فإذا سلم -ولا محيص عن التسليم- ما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا وتشهد من أمر الله العيان ما لم يصل غيرها إلى تعلقه أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم، ما يعلو وضوحًا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم.

ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة، وفي كل زمان، على حسب الحاجة، يظهر برحمته من يختصه بعنايته، ليفي للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحته، إلى أن يبلغ النوع الإنسانى أشده وتكون الأعلام التي نصبها لهدايته إلى سعادته كافية في إرشاده فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة».

●●●

● محاولات التنبؤ:

إذا علمنا أن هناك شيئًا يسمى الصدى وهو هاتف يردد الصوت.

وثبت أن هناك طيفًا أو خيالاً يمثل الجسم.

أمكن لنا الفهم بأن الكهانة محاولة لتقليد النبوة إذ هي استراق السمع من الملأ الأعلى في السماء وإلقاءه في أجسام الجن أو الحيوانات كالطيور

والكلاب والحمر والخيل، أو فى بعض النفوس في اليقظة أو في المنام.

وإذا تتبعنا أخبار الكهانة في تاريخها الطويل لم نجد أكثر من الإخبار عن بعض المغيبات من الحوادث الحاضرة أو المستقبلة الخاصة بالأفراد من الملوك وقادة الحروب لا تنطوى على المعارف والفضائل والمصالح والإرشادات الخالدة التي تفيد البشرية كالنبوة الصحيحة التي جاءت من الله إلى الأنبياء، وجاءت بما يتفق مع العقل أبد الدهر من الأنظمة والشرائع التي تحسن العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول.

لذلك ركدت ريح الكهانة التي كانت تهب وتعصف في اليونان والرومان والصين والهند وطويت في سجل النسيان، ولم تزل آثار النبوة فيها جميعًا باقية خالدة مع تجدد العصور والعلوم.

ولما سئل رسول الله ﷺ عن الكهانة أجاب بجواب كاف شاف على ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت: سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهانة فقال: «**ليس بشيء**» فقالوا: يا رسول الله.. إنهم يحدثون بشيء فيكون حقّاً، فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة**».

وجاء من أخبار ابن صياد الذي ظهر في آخر أيام النبى ﷺ وكان يخبر بالمغيبات فافتتن الناس بأمره إلى أن مر به النبى في نفر من أصحابه وفيهم عمر ابن الخطاب وهو يلعب مع الغلمان عند أطم بنى مغالة وهو غلام فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده، ثم قال: «**أتشهد أنى رسول الله**»؟

قال: فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين، ثم قال ابن صياد للنبي: أتشهد أني رسول الله؟ فقال له النبي ﷺ: «**آمنت بالله ورسوله**». ثم قال له النبي: «**ما يأتيك؟**»

قال: يأتيني صادق وكاذب، فقال له النبي: «**خلط عليك الأمر**». ثم قال النبي ﷺ: «**إني قد خبأت لك خبيئة. وخبأ له ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾** [الدخان: ١٠] قال ابن صياد: هو الدخ فقال رسول الله: «**اخسأ فلن تعدو قدرك**».

فقال عمر: يا رسول الله ايذن لي فأضرب عنقه فقال: «**إن يكنه فلن تسلط عليه -يعني الدجال- وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله**».

والكهانة: تطلق على أنواع مختلفة من محاولات التنبؤ كمخاطبة الجن وكالعرافة والعيافة والفراسة وخط الرمل والنظر في المرآة والماء وقلوب الحيوان والزجر والفأل إلى نحو ذلك مما ذكره ابن خلدون. وقد جعل العرب الكهانة على أصناف:

الصنف الأول: ما يتلقونه من الجن حسبما في الحديث السابق، وهذا الذي انقطع في عهد النبوة.

والصنف الثاني: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا لا يبعد وجوده في أي وقت.

الصنف الثالث: ما يستند إلى التجربة والعادة، كمعرفة الفلاح لطبائع النباتات أو كالربان الذي يعرف علامات ما يحدث في البحر مع السحاب والرياح.

لقد حفظ لنا التاريخ كثيراً من أخبار الكهان ما تحقق وكان صادقًا، وحفظ لنا كثيراً ما أخطأ وكان كاذبًا بل هذا هو الأكثر. لذلك زال سلطان الكهانة ولم تستطع أن تقوم أمام البحوث والتجارب العلمية الحديثة.

ويشرح ابن خلدون الكهانة وتوابعها بما يلي بتصرف يسير:

«الكهانة من خواص النفس الإنسانية التي هي مستعدة للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها، وإذا كان هذا الاستعداد كاملاً كان نبوة، وإن كان ناقصًا كان كهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من الشيطان فيعرض له الصدق والكذب جميعًا ولا يكون موثوقًا به.

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجمهم للشيطان بالشهب بين يدى البعثة.

والصحيح أن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضًا وإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس.

ثم إن كل نبوة لابد لها من وضع فلكى يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام النبوة ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن».

هذا هو البحث عن الكهانة عند ابن خلدون وفي نظرى أنه كان موفقًا في تحقيق هذا البحث وقد كشف النقاب وأزال الريبة عن حقيقة الكهانة ثم ذكر ما هو من قبيل الكهانة مما يتبعها وقال:

«أما الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وأهل الطرق بالحصى والنوى، فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه.

أما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه.

وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع فيستعين بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما.

أما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين.

ومن الناس من يحاول حصول هذه المدارك الغيبية بالرياضة وبالمجاهدة موتًا صناعيًا بإماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيها بالذكر لتزداد قوة فيحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع.

ومن المعلوم أنه إذ أنزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها، فأصحاب الرياضة يحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات.

ومنهم المتصوفة فرياضتهم بالجوع والذكر والإقبال على الله بالكلية يحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد من معرفة الغيب بالعرض لا بالقصد.

أما المنجمون فليسوا من أهل الغيب في شيء إنما هي ظنون وتخمينات» اهـ.

إلى هنا ينتهي بحثه من قبيل الكهانة.

أما ما يقرب من النبوة من قبيل الرؤيا المنامية، فقد أفاض في بحثه وأصاب الحق حيث قال:

«الرؤيا من آثار النبوة الباقية»

ذكر ابن خلدون في بيان حقيقة النبوة أن علامة الأنبياء أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنما غشي أو إغماء في رأي العين وليست منهما في شيء وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني.

ومن ذلك نفهم أن الاتصال بالعالم العلوي يستدعي الغيبة عن العالم السفلي في فترة الاتصال، فالنوم غيبة الحواس واجتماع القوى في النفس الناطقة للاتصال بالعالم العلوي، وبعبارة أوضح النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد فتسكن النفس وتهدأ الروح وتقوى على الاتصال بالملأ الأعلى.

فالرؤيا مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات في عالم الروح بالملأ الأعلى، لذلك كانت النبوة تبدأ بالرؤيا الصادقة.

وكان الوحى مبدأ الرؤيا لسيدنا محمد لمدة ستة أشهر، فكانت رؤياه صادقة ولا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ولذلك قال:

«الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

وجاء الوحى إلى عدد من الأنبياء بالرؤيا كما في قصة إبراهيم في ذبح ولده إسماعيل.

والرؤيا آخر ما بقى من آثار النبوة(١).

إذ قال رسول الله ﷺ: **«لم يبق من النبوة إلا المبشرات**. قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: **«الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له»** (متفق عليه).

ولا فرق في الرؤيا بين بار وفاجر وذكر وأنثى وصغير أو كبير ومؤمن وكافر.

فقد صدقت رؤيا الفراعنة والقياصرة والأكاسرة.

وإنما قسموا الرؤيا إلى ثلاثة:

١- رؤيا من الله وهي الصحيحة الصادقة.

٢- رؤيا من الشيطان وهي رؤيا التخويف والتلاعب.

٣- ورؤيا حديث النفس وهي أضغاث أحلام.

●●●

(١) اعترضت اللجنة الليبية على تسمية الرؤيا بالنبوة الصغرى فوافقناهم على ذلك فتركنا تسميتها كذلك.